المحاضرة الرّابعة عشر: الأدب الإسباني:

تمهيد: وُجدت عدّة لهجات ولغات في إسبانيا؛ إذ ترجع بعض الكلمات لاسيما أعلام الأماكن منها إلى أصل إيبيري، ويرجع البعض الآخر ذو النغمة الألمانية إلى الغيزقوط، أمّا العرب فقد أنموا لغتها الإدارية والعلمية والتجارية والفنية بكلمات وتعابير جديدة، لكن الأصل اللغوي لها لاتيني، وقد انقسمت اللاتينية إلى لهجات شتّى كالقلطونية والغالية والأراغونية والقشتالية هذه الأخير ة استحوذت لأسباب سياسية وحضارية على بقية اللهجات وصارت لغة الأدب والمجتمع الراقي.

البوادر الأدبية الأولى: بدأت في منتصف القرن 12م بفضل انتشار الكتابة واللغة الأدبية، وقد تبلورت أساسا في الأناشيد الدينية والوطنية، وفي القصائد الصغيرة (**الرومانس**)، أو الطّويلة (**ملحمة السيّد**) وفي الأشعار التّعليمية. وقد ساعد الملك الحكيم **ألفونسو العاشر**(1284م) بمقالاته الفلكية في الازدهار الثّقافي، كما اهتمّ **بالتاريخ العام** لاسبانيا وسجل فيه تحت رعايته الشخصية كلّ ما يخص إسبانيا منذ القديم. ومن أهمّ الأجناس الأدبية التي ظهرت في الأدب الإسباني، نذكر:

1_ **الرومانس:** وهي قصائد صغيرة شبيهة بالأرجوزة، ذات موضوع تاريخي أو ملحمي أو عاطفي، وقد ظهرت في القرن 13م، ولكن أوّل قصائد الرومانس المطبوعة كانت في القرن 16م، فمنذ سنة 1550 طبعت في دواوين خاصة بها تحت عنوان **الرومانسيرو**.

ولهذه القصائد قيمة تاريخية وأدبية كبيرة؛ إذ تحتوي على نماذج إنسانية من ملوك وسادة وإقطاعيين وكهنة وصعاليك... بمعنى أنها عكست الحياة الإسبانية اليومية، ولكن بسبب الانتحال والتزوير الذي طالها فإنّها فقدت قيمتها الأدبية وخاصة القصائد الحديثة.

2_**القصّة:** ممّا لاشكّ فيه أنّ اسبانيا ساهمت مساهمة كبيرة في تطوّر القصّة العالمية بمختلف انواعها، وخاصّة في نشوء الرّواية الحديثة مع **سيرفنتاس**، ومن أشهر أنواع القصص:

أ_ **قصة الفروسية:** التي شاعت بفضل انتشار الطّباعة وتوسيع جمهور القرّاء الإسبانيين في القرن 16م، وكان رواجها مطابقا لروح العصر وإقبال المجتمع الإسباني على الفروسية والشّجاعة والحبّ العفيف والخوارق، ومن أشهر القصص قصة **أمادي سدي غولا** 1508م، التي تتحدث عن مغامرات شاب غير شرعي للملك للفوز بقلب الأميرة

البريطانية، ولكن هذه القصص كانت ضعيفة فنّيا نظرا لتكرر الأحداث والنّهايات المتشابهة والابتعاد عن الواقع، ولما جاءت رواية **دون كيشوت** للروائي **ميغال سيرفنتاس** غيّرت من حالها إلى الأفضل.

ب_ **القصة الرّعوية:** يُجمع مؤرّخو الأدب أن مصدر القصص الرعوية التي جاءت منافسة للفروسية ترجع إلى قصّة **أركاديا** للإيطالي **يكويّو سانّزّارور**1530م، وعلى منواله سار **جورج مونتمايور** 1561م في قصّته **ديانا** المطبوعة عام 1559م، وتعتبر نموذجا رئيسيا لبقية القصص الرعوية التي تلتها واشتركت معها في معظم الخصائص الفنية كمزج الشعر بالنّثر، واستعمال الأمور الغيبية أو العجيبة والتّلميح إلى العصر. ولكنّها كانت نوعا ما مصطنعة وبعيدة عن الطّبيعة الرعوية الحقيقية.

ج_**قصص الشطّار:** أو ما يعرف بـ**البيكارسكية** شخصياتها منتمية إلى سفلة المجتمع، وقد عُنيت بوصف عالم الأنذال المليء بالمغامرين والمتسكّعين والمختلسين والغشّاشين ومن لفّ لفّهم من الفقراء واللّصوص والصّعاليك يؤّلفون جيش البيكاروس ويعيشون على هامش المجتمع وخارج النّظم والقوانين الموضوعة، إنّهم أبطال ولمن بالمقلوب يفتخرون بلا حياء بأفعالهم الشّريرة، والاستحواذ على ممتلكات الغير لكسب القوت والبقاء في مجتمع لا يرحم.

ومن أشهر قصص الشطّار قصّة **سلستينا** 1499م لـ**فرديناندو دي روخاس** وهي شبه دراسة واقعية للمجتمع، وقصّة **الصّعلوك** أو حياة **قزمان دي ألفراش** لـ**ماتيو ألمان**...

3_ **المسرح:** من أكثر الأجناس الأدبية المنتشرة في الأدب الإسباني في القرنين 16 و17م، وله ميزتان عامّتان:

_ أنّه ذو طابع وطني، لفهمه يجب الاطّلاع على الحياة السياسية والاجتماعية والدينية لإسبانيا في أيام ازدهارها الفكري والحضاري، وقد صوّر كل عادات وتقاليد وأزمات الاسبانيين وعلّمهم نماذج من حسن السلوك والمعاملات فيما بينهم.

_ أنّه ذو طابع رومانسي يدعو إلى الحرية المطلقة، ويمزج بين المأساة والملهاة، وله حقّ التصرّف في الشّخصيات، وكان مرآة صادقة للمجتمع الإسباني في مختلف عصوره.

من المعروف أنّ المسرحية الإسبانية ظهرت على يد رجال الكنيسة الذين كانوا ينظّمون بمناسبة الأعياد الدينية أمسيات مسرحية ذات موضوعات دينية كالمعجزات والأسرار، ويستقر المسرح الاسباني في نهاية القرن 16م على **الكوميديا** التي عدّت الشكل النموذجي للمسرح الوطني الاسباني، وقد اتّسمت بكثرة الحركة والتغيرات الطارئة

والحوادث المفاجئة غير المتوقّعة والمشاهد السحرية... وتتوفّر على عنصر الضّحك حتّى في الحوادث المؤلمة. أمّا هدفها فيكمن في وصف المجتمع الاسباني بصدق وواقعية. كما ظهرت **الدراما الدينية** التي تميزت ب:

ـ التديّن الصادق والعميق لرجال الدين، وطغيان فكرة الإيمان بأنّ الرحمة الإلهية غير محدودة، وتوبة الأبطال في النهاية وندمهم على ما اقترفوه من آثام.

ـ نزوعها نزعة صوفية ضيقة لكونها تُعنى بالقدّيسين المحليين أكثر من عنايتها بالأنبياء.

ـ الميل إلى المجادلات اللاهوتية.

وقد أثّرت الكوميديا في المسرح الفرنسي خاصة في القرن 17م وهيّأ للمأساة الحقيقية للبروز مع **كورناي وراسين**.

مع مجيء القرن 18م شعرت اسبانيا بحاجتها إلى التجديد خاصة مع إنشاء الأكاديمية الملكية سنة 1713م وانكباب أعضائها على التّأليف الموسوعي، واطّلعوا على التيارات الفلسفية والأدبية الأوروبية والعمل على النّهل منها. وفي النّصف الثاني من القرن 18م تطوّر الفن القصصي على يد كل من **فرنان كبلّير، خوسيه ماريا دي بيريدا** المولع برسم الحياة الجبلية، و**رامون غوميزدي لاسرنا** المبالغ في استعمال العجيب والتّأليف في أدب الأطفال... ومع اندلاع الحرب الأهلية سنة 1936م تتخلى القصة الاسبانية عن اتّجاهاتها السّابقة، ويتوسّع أفقها بالنّزعة الواقعية التي لقيت فيها مجالا أخصب وأقرب إلى معاناة الشّعب الإسباني ومحنه الفظيعة.

المصادر والمراجع:

- **عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1،1989** .
- **فؤاد الكعبازي، قراءات في الشعر العالمي، الدار العربية للكتاب، (دط)، 1984.**
- **نبيل راغب، معالم الأدب العالمي المعاصر، دار مصر للطباعة، مكتبة الإسكندرية، (دط)،(دت).**